مقالات وردود

مقالات الصوفية والرد عليها

عبيد الله الباقي أسلم
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

المقالة الأولى: في مصادر التلقي:

الصوفية ليسوا على درجة واحدة في هذا الباب، فمنهم من يعتمد في التلقي على الكتاب والسنة في الجملة(١)، ومنهم من جعل عمدته ما يسمونه بالمكاشفات(٢)، ومنهم من قيد كشفه بموافقة الكتاب والسنة(٣)

ولم يستند غلاة الصوفية في تحصيل علومهم إلى الكتاب والسنة بل حصروا مصادر التلقي في ثلاثة مصادر، وهي: **الكشف، والوجد، والذوق**(٤)، قال ابن عربي: "لا علم إلا ما كان عن كشف وشهود"(٥)، وقال: "نحن بحمد الله لا نعتمد في جميع ما نقوله إلا على ما يلقيه الله تعالى في قلوبنا لا على ما تحتمله الألفاظ"(٦).

وعندهم عدة طرق للكشف، ومنها: الإلهام، والتلقي عن النبي ﷺ في المنام، والتلقي عنه يقظة، والتلقي عن خضر عليه السلام، والتلقي من اللوح المحفوظ وما إلى ذلك.

الرد على ذلك:

أن للإسلام أصلين فقط، القرآن والسنة الصحيحة(٧)؛ "ومن ابتغى الهدى في غير كتاب الله والسنة لم يزدد من الله إلا بعدا"(٨)، بل "كل طريق لم

(١) ينظر: الرسالة القشيرية (١/ ٧٩).
(٢) ينظر: الجواب الصحيح (٣/ ١٨٦ - ١٨٧).
(٣) ينظر: طبقات الشعراني (ص: ٢٩١).
(٤) ينظر: مصادر التلقي عند الصوفية (ص: ١٠٦).
(٥) الطبقات الكبرى للشعراني (ص: ١١).
(٦) اليواقيت والجواهر للشعراني (٢/ ٢٤ - ٢٥).
(٧) ينظر: الدين الخالص (٣/ ٣٦).
(٨) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٠).

يصحبها دليل القرآن والسنة فهي طريق الجحيم والشيطان الرجيم"(١).

المقالة الثانية: في عقيدة التوحيد:

أ-مقالاتهم في حقيقة التوحيد:

وحقيقة التوحيد هي نسيان التوحيد(٢)، ولا تصح المعرفة وفي العبد استغناء بالله وافتقار إليه(٣)، بل المعرفة غايتها شيئان: الدهش والتحير(٤)، وأعرف الناس بالله أشدهم تحيرًا فيه(٥)، فالتوحيد عند غلاة الصوفية غير معلوم، ولا يمكن التعبير عنه، وكل من حاول التعبير عنه فهو ملحد، بل مجرد التصور للتوحيد سبب للبعد عن معرفة الله تعالى.

سأل أحد الأشخاص الشبلي عن التوحيد فأجابه قائلًا: "ويحك من أجابك عن التوحيد فهو ملحد، ومن أشار إليك فهو ثنوي، ومن أومأ إليه فهو عابد وثن، ومن نطق به فهو غافل، ومن سكت عنه فهو جاهل، ومن توهم أنه واصل فليس بحاصل"(٦).

وبناء على هذه الحقيقة قسّموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

أ - توحيد العامة الذي يصح بالشواهد.

ب - توحيد الخاصة الذي يثبت بالحقائق.

ج -توحيد قائم بالقدم، وهو توحيد خاصة الخاصة(٧).

الرد على ذلك:

أولًا: أن الله تعالى قد ذم الحيرة، فكيف يكون الحائر عارفا بالله عزَّ وجلَّ وهو جاهل ضال لا يعرف إلى أين يتجه لتحيره؟!(٨).

ثانيا: أن قولهم: «لا تصح العبارة عن التوحيد»: كفر بإجماع المسلمين؛ فإن الله قد عبر عن توحيده، ورسوله عبر عن توحيده، والقرآن مملوء من ذكر التوحيد بل إنما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٩).
(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٠٢).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٦٠٣).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٦٠٥).
(٥) المصدر السابق (٢/ ٥٠٦).
(٦) المصدر السابق (٢/ ٥٨٦).
(٧) ينظر: منازل السائرين (ص: ٤٧).
(٨) ينظر: سورة الأنعام (٧١).

بالتوحيد"(١).

ثالثا: أن المراد بتوحيد العامة: هو توحيد الألوهية، وهو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، ومع ذلك أنه خاص بعوام الناس دون خواصهم عندهم!

وأما المراد بتوحيد الخاصة: فهو الفناء في توحيد الألوهية الذي قد يحصل به صعق أو موت عند سماع الحق، ولكن مثل هذا الأمر لم يصب النبي ﷺ أو السابقين الأولين!

وأما المقصود من توحيد خاصة الخاصة: فهو الحلول والاتحاد بالرب – تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا–، فقول القائل: إنه لم يبق في قلبه إلا القديم؛ فهذا إن أريد به ذات القديم فهو قول النسطورية من النصارى، وإن أريد به معرفته والإيمان به وتوحيده فإن قلوب أهل التوحيد مملوءة بهذا، وإن أريد به: ما في الوجود إلا الوجود القديم فهذا قول الجهمية(٢).

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٥١).
(٢) ينظر: منهاج السنة النبوية (٥/ ٣٣٧ – ٣٨٣).

ب –مقالاتهم في الحلول والاتحاد:

يعتقد أهل الحلول المطلق بأن الله حل في كل شيء أو اتحد بكل شيء أو الوجود واحد(٣)، بل قالوا بحلوله أو اتحاده في جميع الموجودات حتى الكلاب والخنازير والنجاسات وغيرها(٤) – تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا–.

قال الحلاج:

لا أناديه ولا أذكره – إن ذكري وندائي يا أنا
وظاهرًا وباطنًا تجلى – في كل شيء بكل شيء(٥).

قال البسطامي: "سبحاني ما أعظم شأني"(٦).

وقال أيضًا: "رفعني مرة فأقامني بين يديه، وقال لي: يا أبا يزيد! إن خلقي يحبون أن يروك، فقلت: زيني بوحدانيتك، وألبسني أنانيتك، وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هناك"(٧).

(٣) ينظر: بيان تلبيس الجهمية (٥/ ١٧٠).
(٤) ينظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٩٢ – ٢٩٣).
(٥) ينظر: أخبار الحلاج (ص: ٧٨).
(٦) ينظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٤٦١).
(٧) اللمع للطوسي (ص: ٤٦١).

الحاصل أن مذهب أهل الحلول المطلق مبني على أصلين فاسدين:

الأصل الأول: أن أعيان الممكنات ثابتة في العدم مستغنية بنفسها.

الأصل الثاني: أن وجود الخالق عين وجود المخلوق(١).

الرد على ذلك:

أولًا: أن الله كان وليس معه غيره، وكان عرشه على الماء، ثم استوى على العرش، فهو مستو على عرشه فوق سبع سمواته بائن عن خلقه، وبعلمه يعلم ما في السموات والأرض وما بينهما.

ثانيًا: أن الله واحد صمد، وأنه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله.

ثالثًا: أن الاتحاد بين الخالق والمخلوق ممتنع؛ لأن الخالق والمخلوق إذا اتحدا فإما أن يكونا بعد الاتحاد اثنين، أو يستحيلا إلى شيء ثالث؛ فيلزم أن الخالق قد استحال وتغيرت حقيقته، وهذا ممتنع على الله تعالى(٢).

ج -مقالاتهم في وحدة الوجود:

يعتقد غلاة الصوفية أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى، أي: "أن الله تعالى والعالم شيء واحد"(٣)، قال ابن عربي: "فالإله المطلق لا يسعه شيء لأنه عين الأشياء وعين نفسه والشيء لا يقال فيه يسع نفسه ولا يسعها فافهم"(٤)، وقال الحلاج: "أنا الحق، وما في الجبة إلا الله"(٥)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "أن حقيقة أمرهم أنهم يرون أن عين وجود الحق هو عين وجود الخلق، وأن وجود ذات الله خالق السموات والأرض هي نفس وجود المخلوقات"(٦).

الرد على ذلك:

أولًا: أن رجلين لا يصير أحدهما عين الآخر لتباينهما في ذاتيهما كما هو معلوم، فالتباين بين العبد والرب سبحانه وتعالى أعظم، فإذن أصل الاتحاد باطل

(١) ينظر: بغية المرتاد (ص: ٤١٠)، والجواب الصحيح (٤/ ٣٠٠).
(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٣٣٩).

(٣) عقيدة الصوفية وحدة الوجود (ص: ٨٢).
(٤) فصوص الحكم (ص: ٤٤٠).
(٥) ينظر: جواهر المعاني وبلوغ الأماني (٢/ ١٨٨ - ١٨٩).
(٦) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٦٦).

محال مردود شرعًا وعقلًا وعرفًا(١).

ثانيًا: أن مما يترتب على هذا القول الفاسد: تجويز عبادة كل شيء موجود في هذا الكون، وأن كل من يعبد غير الله هم مؤمنون حقًا(٢).

ثالثًا: أن مما يترتب على ذلك: القول بوحدة الأديان، وقد صرح به غلاة الصوفية -كابن عربي(٣)، والجيلي(٤)، وابن الفارض(٥) وغيرهم-.

د-مقالاتهم في الأسماء والصفات:

عطل غلاة الصوفية الله عزَّ وجلَّ من أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فحقيقة الرب عندهم: هو "وجود مجرد لا اسم له ولا صفة ولا يمكن أن يرى في الدنيا ولا في الآخرة ولا له كلام قائم به ولا علم ولا غير ذلك، ولكن يرى ظاهرا في المخلوقات متجليا في المصنوعات"(٦)، بل "آل الأمر بملاحدة المتصوفة كابن عربي صاحب فصوص الحكم وأمثاله إلى أن جعلوا الوجود واحداً، وجعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق وهذا تعطيل للخالق"(٧).

فالله تبارك وتعالى مجرد عن الأسماء والصفات عند غلاة الصوفية، وأمرهم قائم على أمرين أساسيين في باب الأسماء والصفات:

الأمر الأول: إما أن يجعلوا الحق لا وجود له ولا حقيقة له في الخارج أصلًا، وإنما هو أمر مطلق في الأذهان.

الأمر الثاني: وإما أن يجعلوه عين وجود المخلوقات؛ فلا يكون للمخلوقات غيرها أصلًا، ولا يكون رب كل شيء ولا مليكه، وهذا حقيقة قول القوم، وإن كان بعضهم لا يشعر بذلك(٨).

الرد على ذلك:

أولًا: أن ما من ذات إلا ولها صفات تخص وتليق بها، ومن لا صفات له فهو ليس بشيء بل هو معدوم.

ثانيًا: أن الله عزَّ وجلَّ أثبت لنفسه أسماء

(١) ينظر: الحاوي للفتاوي للسيوطي (٢/ ١٢٦).
(٢) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٥).
(٣) ينظر: فصوص الحكم (ص: ٤٤٥).
(٤) ينظر: الإنسان الكامل (١/ ٢٣).
(٥) ينظر: ديوان ابن الفارض (ص: ١١٤).
(٦) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٩٠).
(٧) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٤).
(٨) ينظر: بغية المرتاد (ص: ٤١٠).

وصفات، وأثبتها له رسوله ﷺ؛ فلله الأسماء الحسنى، وله المثل الأعلى، وليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

ثالثًا: أن الله تعالى مستو على عرشه فوق سبع سمواته بائن عن خلقه، وبعلمه يعلم ما في السموات والأرض وما بينهما.

المقالة الثالثة: في الشرك بالله:

يعتقد غلاة الصوفية أن الشرك لا يوجد على ظهر الأرض؛ لأن الجميع عين واحدة، ف"العارف من يرى الحق (الله) في كل شيء، بل يراه عين كل شيء"(١)، ولذلك "يجوزون الشرك وعبادة الأصنام على وجه الإطلاق والعموم"(٢)، "بل قد آل الأمر بهؤلاء إلى أن سووا الله بكل موجود وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقا لكل موجود إذ جعلوه هو وجود المخلوقات وهذا من أعظم الكفر والإلحاد برب العباد"(٣).

وبناء على ذلك كثرت أنواع البدع والشرك عندهم؛ وجعلوا دعاء الموتى أفضل من دعاء الله تعالى فيدعونهم عند المصائب ويستغيثون بهم، ويذبحون لهم، ويقدمون لهم أنواعا من القربات، بل إنهم أعظم كفرا من المشركين؛ لأن المشركين عبدوا الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى، لكن هولاء يعبدونها لأنها عندهم هي الله(٤).

الله(٤).

الرد على ذلك:

أولًا: أن القول بأن الحق (الله) هو عين الخلق كفر؛ لأن الله مستو على عرشه بذاته بائن عن خلقه، فمن زعم أنه في كل مكان أو حل بكل شيء أو في كل شيء فهو كافر.

ثانيًا: أن الله تعالى هو الخالق المستحق لجميع أنواع العبادة؛ فمن صرف شيئا منها لغيره فقد أشرك بالله سبحانه وتعالى.

ثالثًا: أن الموتى لا يسمعون ولا ينصرون أنفسهم فكيف يستطيعون نصر غيرهم؟!

***

(يتبع)

(١) الفتوحات المكية (٢/ ٦٠٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٦).
(٣) المصدر السابق (١٠/ ١٦٢).
(٤) المصدر السابق (٧/ ٦٣٢).